نشأة و تطور الصحافة المكتوبة الإستعمارية بالجزائر(1830-1954)

أولا: الصحافة الاستعمارية الحكومية (الرسمية)

مقدمة:

انطلاقا من المصادر المهتمة بهذا الموضوع، يتأكد أن الجزائر لم تعرف الصحافة المكتوبة إلا مع الغزو الفرنسي لها سنة 1830، حيث وظّفت الحكومة الفرنسية هذه الوسيلة إلى جانب القوة العسكرية في إنجاح حملتها الاستدمارية، و تثبيت وجودها الإستعماري بالأرض الجزائرية، ونظرا لأهمية هذه الوسيلة في الدعاية الاستعمارية لجأت السلطات الفرنسية وجاليتها بالجزائر (المستوطنون) إلى تأسيس عدّة صحف للدفاع عن مصالحهما، وبدورهم الجزائريون (الأهالي) تشجّعوا مع بداية القرن العشرين ميلادي على إصدار صحف خاصة بهم لطرح انشغالاتهم و الدفاع عن حقوقهم المغتصبة. و قد حدد الأستاذ الباحث الجزائري زهير إحدادن أربعة أصناف رئيسية للصحافة المكتوبة التي تأسست بالجزائر خلال الحقبة الإستعمارية (1830- 1954) ، حسب التوجهات الفكرية و السياسية لكل صحيفة، وهي:

- الصحافة الإستعمارية الحكومية (الرسمية)
- صحافة المستوطنين (الأوروبيين) الإستعمارية
- الصحافة الأهلية الجزائرية
- الصحافة الوطنيـــــة[1].

1-ماهية الصحافة الإستعمارية الحكومية(الرسمية):

وهي الصحافة التي "أشرفت عليها الحكومة الفرنسية عن طريق ممثلها في الجزائر وهو الوالي العام وجميع الإدارة الاستعمارية بطريقة مباشرة"، و تعد جريدة المبشر نموذجا حقيقيا لهذا النوع، و قد يكون الإشراف بطريقة غير مباشرة من خلال تدعيم صحيفة معيّنة ماليا وتوفير لها كل الإمكانيات الضرورية لضمان استمرارية صدورها مقابل خدمتها للوجود الإستعماري، على غرار صحيفتي (النجاح)، و (كوكب إفريقيا) ، اللتين أديتا هذا الدور.

سبق للحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر 1830 و أن قامت بإصدار أول جريدة استعمارية، التي وزعت مع نزول الجيش الفرنسي، وكانت تحمل إسم (Estafette d'Alger-)، تعني بالعربية (بريد الجزائر)، وعنوانها الفرعي: "جريدة جيش الحملة والبحر المتوسط، سياسية، عسكرية، صناعية، تاريخية، حربية"، "وحملت في أعلاها لإشعار الجيش الفرنسين و مجموعة من الرماح و الرايات، مرشوقة في تاج، محزومة بقلادة سان لويس"، محررة من طرف الأديب جان توسنت ميرل (Merle Jean Tonssaint)، صدر عددها الأول يوم الخميس 1 جويلية 1830 ، مباشرة بعد إنجاح عملية الإنزال بشاطئ سيدي فرج، بينما صدر العدد الثاني والأخير بتاريخ 5 جويلية 1830. و لقد ارتفعت

أصوات حشود الحاضرين عندما وزعت الأعداد الأولى لمنشوراتها و نشرت في الهواء، و كانت قد صدرت و هي تحمل عرضا كاملا عن عمليات و عبور البحر و نزول الحملة العسكرية ضد الجزائر".

مثلت الجريدة اللبنة الأولى لظهور الصحافة الاستعمارية في الجزائر، التي تطورت و انتشرت بتوسع الاستعمار في الأرض الجزائرية وتطور جاليته الاستيطانية، بحيث أصبح في كل قرية و مدينة جريدة استعمارية تدافع عن المستدمر و غلاته و ذلك إلى غاية رحيلهما عن الجزائر سنة 1962 و استرجاع السيادة الوطنية.

2-نماذج من الصحافة الإستعمارية الحكومية:

2-1-صحيفة(Estafette d'Alger)(بريد الجزائر):

تعد هذه الجريدة أول تجربة صحفية في الجزائر التي عرفت لأول مرة آلة الطباعة (المطبعة الإفريقية)، وكانت بريد الجزائر محررة باللغة الفرنسية، و من الحجم الصغير(العدد الأول طوله36 سنتم و عرضه24) ، تمحورت أخبارها حول الحملة الفرنسية وانتصارات الجيش الفرنسي، ومعلومات عن الداي حسين حاكم الجزائر و أحوالها العامة، وظروفها الطبيعية والمناخية.

و عن أهداف هذه الصحيفة كشف ذلك الأستاذ الجزائري الزبير سيف الإسلام بقوله: «... و هكذا عرفت الجزائر بوجه خاص و شمال إفريقيا بوجه عام أول جريدة استعمارية، كانت ناطقة باللسان الفرنسي. وكانت في خدمة الإستعمار الأوروبي و مصالح الغزاة الفرنسيين إبان حملتهم العدوانية ضد هذا الشعب الكريم و الشجاع الذي لم يبخل على فرنسا عبر القرون بتقديم الإعانة لها في كل مرة يصبح كيانها مهددا بالزوال؟. و مع هذه الحملة العدوانية عرفت الشطوط الشمالية الإفريقية لأول مرة في التاريخ آلة الطباعة و صناعة الصحافة و مكينة غوتنبرغ Gutenbergالعجيبة».

لم تستمر هذه الصحيفة في الصدور، بحيث سرعان ما توقفت، و هناك من ربط ذلك بكونها نجحت في تحقيق الهدف الأساسي الذي قامت من أجله، والمتمثل في إنجاح الحملة العسكرية على الجزائر 1830، و هناك من أرجع ذلك لكون الجريدة كانت تفتقر لمشروع حقيقي يضمن لها الدوام و الاستمرارية، بحيث استهدفت بالدرجة الأولى سكان العاصمة للتأثير عليهم سيكولوجيا و من ثمة تهيئتهم لقبول السلطة الإستعمارية الجديدة.

2-2-جريدة الممرن الجزائري(Le moniteur Algérien):

بعد اختفاء بريد الجزائر اعتمدت سلطات الإحتلال في نشر و إيصال تعليماتها إلى الشعب الجزائري على النشرات العامة التي عرفت بالمعلقات العامة، وهي في مجملها معلّقات دعائية لتدعيم الاحتلال و خدمته، واستمر ذلك لغاية سنة 1832، و هو التاريخ الذي صدرت فيه أول أسبوعية حكومية بالجزائر إنها جريدة (الممرن الجزائري) (Le moniteur algérien)، صدر عددها الأول في 27 جانفي 1832 محرر باللغة الفرنسية، و تضمن أيضا بيانات موجهة للجزائريين باللغة الدارجة.

دافعت الجريدة باستماتة عن الوجود الإستعماري في الجزائر، حيث لم تدخر جهدا في تدعيمه بشتى الوسائل، بل "كانت ترد بعنف على كل من يهاجم احتلال الجزائر وذلك تحت عنوان ثابت (معرض الصحافة)". و عن الدور الخطير الذي أدته هذه الجريدة في التأثير على الجزائريين و تثبيط عزائمهم، يشير لذلك الأستاذ الزبير سيف الإسلام بقوله: «... أنها جريدة استعمارية خلقها الاستعمار،

سلاح فتاك في ميدان الإعلام، سلطه على معنويات شعبنا، و هو يريد بواسطة الكذب و الخدع و التزييف أن يحقق به ما عجز عن تحقيقه بواسطة سلاح الحديد و النار... ترفع قيمة الخونة و تمدح ضباط و جنود الغزاة و تعمل جاهدة للمس من سمعة و قيمة ضباط و أبطال المقاومة و تقلل من بطولاتهم الرائعة... »

2-3-النشرية الرسمية لعقود الحكومة(Bulletin officiel des actes du gouvernement):

إلى جانب صحيفة (الممرن الجزائري)، صدرت النشرية الرسمية لعقود الحكومة، وهي جريدة رسمية، اعتبرت ثالث صحيفة استعمارية رسمية في الجزائر، برز عددها الأول في 20 أكتوبر 1834، اهتمت بنشر القرارات الرسمية باستمرار لغاية سنة 1858، حيث أصبحت تسمى بـــ: الجريدة الرسمية للجزائر والمستعمرات Journal officiel de L'Algérie et des colonies، ثم تم تغيير عنوانها في سنة 1861 بحيث أصبحت تعرف باسم: النشرة الرسمية للحكومة العامة الجزائرية Bulletin officiel du gouvernement général de l'Algérie، واستمرت في ذلك لغاية سنة 1927 حيث اختفت، وحلت محلها الجريدة الرسمية الجزائرية Journal officiel de l'Algérie (J. O. A)، التي استمرت في الصدور إلى غاية استرجاع السيادة الوطنية سنة 1962.

و دور النشرة الإستعمارية لا يخرج عن دور الصحافة الاستعمارية المكتوبة في فرض سيطرة المحتل على الجزائر أرضا و شعبا، حيث استعملت هذه النشرة" لجعل من الكذب صوابا و من الباطل حقا، و من الوجود الفرنسي المفروض وجودا شرعيا و من تدخله في شؤوننا الداخلية ظلما و عدوانا تدخلا قانونيا".

2-4-جريدة المبشر(1847-1927):

صدر عددها الأول في يوم الأحد 1847/09/15 بالعاصمة و باللسانين العربي و الفرنسي، وهي أول جريدة حكومية رسمية، تصدر باللغة العربية في الجزائر، وقد كان وراء تأسيسها الملك الفرنسي لويس فيليب(1830-1848) للتأثير على الرأي العام الجزائري، ومن ثمة تبرير سياسة الاحتلال.

بدأت في الصدور مرتين في الشهر في أربع صفحات ذات حجم صغير وتطبع بالطباعة الحجرية، ثم أصبحت بداية من العدد 312 (22 أفريل1861)، تصدر كل عشرة أيام، ثم تحولت إلى أسبوعية ابتداءً من شهر سبتمبر 1866 ،و تصدر كل يوم خميس، كما تطوّرت من حيث آلة الطباعة ابتداءً من 30 أفريل 1850، حيث أصبحت تطبع بالطريقة الآلية. اعتبرت المبشر ثالث جريدة صدرت في العالم العربي باللسان العربي بعد ((الحوادث اليومية))1799، و ((الوقائع المصرية))1828 المصريتين.

كانت مواد المبشر تكتب أصلا باللغة الفرنسية ثم تترجم إلى اللغة العربية، إذ "تعتبر ترجمة تقريبية ركيكة للنص الفرنسي من الصحيفة"، «الأمر الذي جعل أسلوب المبشر (المعربة ركيكا)جدا، إذ تغلب عليه التعابير العامية، فمقالاتها تعدّ خليطا من الألفاظ الفصحى والدارجة والفرنسية، وشاعت في ثناياها الأخطاء النحوية والمعرفية شيوعا فاحشا حتى بات النسيج الذي حيكت به هذه المقالات عاميا مهلهلا،

فإنشائه بسيط ينهكه الضعف و الوهن من كل جانب، وتتخلل الجريدة التعبيرات الركيكة مما جعلها مستعصية على الفهم في بعض الأحيان».

و نستدل في هذا الصدد بـ: البيان التوجيهي الذي استهلت به الجريدة صدورها: «... اعلموا يا مسلمين أرشدكم الله ان المعظم سلطان أفرانصة نصره الله اتفق برايه وقوع هذا مختص لفايدتكم و خيركم و تواثر النعمة عليكم و الشاهد لكم في ذلك كل ما يدل على نعمتكم و مسيراتكم... وأيضا أخر فوايد المبشر الذي أنعمنا بانشايه هو لما تعلموا بمقصودنا و جميع ما يجب عليكم من إجراء الحكم و التصرفات و تضلعون على هذا الأخبار ينبقي عنكم بسبب ذلك كلام الوشات.... ».

انتصبت هذه الصحيفة للدفاع عن الوجود الاستعماري و مصالح المستوطنين بالجزائر، كما أشارت في هذا الصدد الكاتبة اللبنانية سلمان نور-المتخصصة في الأدب الجزائري التحرري- قائلة: «وكان موقفها واضحا من الثائرين على السلطة و المقاومين لها، حيث اعتبرتهم من المدمرين الذين يسعون إلى المسلمين بالهلاك، وعلى رأس هؤلاء الأمير عبد القادر الثائر وبوبغلة».

كذلك أن المبشر اعتبرت ثورة ريغة 1901(عين التركي) باللاحدث بطريقة أو بأخرى، ممارسة بذلك التعتيم الإعلامي ضدها، من خلال أنها لم تنشر ولو خبر واحد حول هذه الثورة وذلك في جميع أعدادها الصادرة خلال الفترة الممتدة مابين شهر أفريل 1901 و جانفي 1902.

و بدوره أكد الأستاذ زهير إحدادن على الدور الخطير الذي أدته هذه الصحيفة، بقوله: «... ليست الصحافة الحكومية إلا ركيزة لتثبيت الوجود الفرنسي رغم أنها كانت تنطق باللغة العربية، وإن كانت تعتني بالجوانب المختلفة للحضارة العربية الإسلامية، فهي كانت قبل كل شيء دعامة للتوسع الإستعماري ووسيلة للتقرب من المسلمين، و ما كان استعمالها للغة العربية إلا كأحسن وسيلة لتحقيق هدفها... ».

و مع بداية الخمسينيات القرن 19م عرفت الجريدة تطوّرا هاما بحيث أصبحت تتوسع في نشر الأخبار، وتظهر اهتمامها بشؤون الأهالي والدفاع عن مصالحهم "بهدف الظهور على أنها جريدة كل الجزائريين" وأصبحت كذلك من حين لآخر تنشر بعض المقالات والدراسات الهامة والتعريف ببعض الشخصيات البارزة في التاريخ الجزائري.

وإذا كان تأسيس " المبشر" لأغراض استعمارية، إلا أنها من جهة أخرى مثلت مدرسة هامة تعلم وتخرّج منها الصحفيون الجزائريون الأوائل الذين وظفوا فيما بعد تجاربهم و خبراتهم في إصدار صحف جزائرية بحتة.استمرت المبشر في الصدور لغاية 1927، وعُوِّضت بالجريدة الرسمية.